أصل الكتابة العربية بين القدامى و المحدثين

د/ مالك محمد جامعة وهران

مقدمة:

لا يمكن أن نقطع في أمر أصل الكتابة العربية من غير أن نقف على إسهامات ما أبدعته أنامل من عاش فترة ما قبل الإسلام، فهل دونت أقلام أولئك ما جال بخاطرهم؟ و هل حرروا عقوداً و مواثيق؟

إن هذا التساؤل و غيره مما يفترض طرحه في إشكالية بحث معرفة أهل الجاهلية بالخط و الكتابة سيشكل محاور هذه المداخلة، التي تناولها أهل الاختصاص بكثير من الدقة و العمق في كتبهم قديمها و حديثها.

و قد ظل الحديث عن أصل الكتابة الشغل الشاغل منذ بدء التأليف، فهذا السيوطي نقلاً عن ابن فارس و هو يتحدث عن الكتابة أهي اصطلاح أم توقيف، يستشهد بآيات قرآنية قال: ثم قال ابن فارس: و الذي نقوله فيه: إن الخط توقيف، و ذلك لظاهر قوله تعالى: "الذي علم بالقلم" [العلق:04]، و قوله تعالى: "ن و القلم و ما يسطرون" [القلم:01]...[1]

و هل يعقل أن يطالب عرب الجاهلية رسول الله صلى الله عليه و سلم أن ينزل عليهم كتاباً يقرؤونه لولم يكونوا على نذج في الكتابة و القراءة

الروايات العربية في أصل الكتابة العربية:

خلص محمد مرتاض– في بحثه عن الكتابة عند الجاهليين[2]– إلى أن القوم مارسوا الكتابة وعلموها، وإن لم تطالعنا المصادر إلاَّ على ثلة منهم، ويحسب لأولئك معرفتهم باللغات الأجنبية، حتى حذقوا فيها؛ فمنهم من أتقن الفارسية كعدي بن زيد العبادي ولقيط ابن يعمر الإيادي– وهو شاعر–،و منهم من كان على دراية بالسريانية، ولا يخفى أمر زيد بن ثابت الذي تعلم لغات كثيرة على عهد رسول صلى الله عليه وسلم، تعلم الكتابة العبرانية والسريانية والفارسية والرومية والقبطية والحبشية.

يتجاذب هذا المبحث مسلكان، مسلك كان رواته من القدامى ومسلك يرفع رايته المحدثون، ولا يبرح كلا الفريقين في حديثه عن أصل الكتابة العربية الشمالية، أي عن تلك الكتابة التي دون بها القرآن الكريم.

تباينت روايات علماء العربية في أصل الكتابة بعامة والكتابة العربية بخاصة، لذلك كثرت الروايات في هذا الباب واختلفت كما لاحظ ابن فارس[3]

فمن العلماء– من القدامى– من رأى أن الخط توقيف من الله مستشهداً في ذلك ومدعما رأيه بآيات من الذكر الحكيم كقوله تعالى:"وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِين".[البقرة/31] وكقوله تعالى:"ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ".[القلم/1] وكقوله سبحانه وتعالى:"اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ(3)الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(4)عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ." [العلق]، يقول ابن فارس:" ليس ببعيد أن يوقف آدم عليه السلام أو غيره من الأنبياء عليهم السلام على الكتاب".[4]

ومما يُروى عن كعب الأحبار قوله: "أول من وضع الخط العربي والسرياني وسائر كتب آدم عليه السلام قبل موته بثلاثمائة سنة، كتبه في الطين ثم طبخه، فلما انقضى ما كان أصاب الأرض من الغرق، وجد كل قوم كتابهم فكتبوا به، فكان إسماعيل عليه السلام وجد كتاب العرب".

وذكر القلقشندي أنه جاء في سيرة ابن هشام:" أن أول من كتب الخط العربي حمير بن سبإ عُلِّمه في المنام قال: وكانوا قبل ذلك يكتبون بالمسند، سمي بذلك لأنهم كانوا يسندونه إلى هود عليه السلام".[5]

وذهبت رواية أخرى إلى أن أول من خط بالقلم بعد آدم عليه السلام إدريس عليه السلام"[6].

لم يكن لهذه الروايات صدىً لدى غانم قدوري[7]، ولم ير فيها حقيقة التوقيف، فلا يقرها–عنده– البحث السديد، لأن سياق الآيات المستشهد بها في هذا الباب لا يوحي– كما أشار– بشيء من الحديث عن أصل الخط، ويبدو أن بقية الروايات كان للإخباريين من أهل الكتاب يد فيها ولا تقوى حجتهم ليُستدل بها.

ولا يقبل غانم قدوري[8]رأي من ذهب إلى أن من وضع الخط العربي هم جماعة أبجد هوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت الذين نزلوا عند عدنان بن أُدد فاستعربوا ووضعوا على أسمائهم الكتاب العربي ثم أضافوا أحرفاً أخرى لم تشملها أسماؤهم وسموها الروادف وهي من قولهم ثخذ ضظغ، وقيل عنهم هلكوا يوم الظلة مع قوم شعيب يَرُدُّ هذا كله غانم قدوري، ويرى أن مثل هذه الروايات طغى عليها طابع الخرافة، ويرفضها منهج التحقيق العلمي والوقائع التاريخية.

غير أنه بالرغم مما وُجِّه لهذه الروايات من انتقادات فهي لا تخلو من فائدة تذكر؛ فهي تشير إلى رموز الأحرف الستة التي خُصَّت بها الأبجدية العربية إذا ما قُورنت بغيرها من الأبجديات السامية ثم تشير إلى بلاد مدين في شمال جزيرة العرب، وأن أولئك الملوك منها، وفوق ذيْنِكَ يظهر لاحقاً دور تلك الأنحاء في نشوء وتطور الكتابة العربية.

و من الإنصاف أن نقف إلى جانب روايات و هي ترصد وقفات عن أصل الخط العربي بدت في عمومها أكثر جدية تلخصها الإشارات التالية:

1– كان الخط العربي في الجاهلية يسمى "الجَزْمُ"[9] وتُعلل التسمية لكونه جُزِم من المسند أي أخذ منه، والمسند هو خط حمير أيام ملكهم[10]و قد صنف ابن خلدون الخط بضمن الصنائع الحضرية، ومن جملة الصنائع المدنية المعاشية، وجودة الخط تكون – كما يرى– على قدر الاجتماع والعمران، ورأى أن الخط قد انتقل من اليمن في دولة التبابعة التي أجاد أهلها هذا الفن وأتقنوه، ويسمى الخط الحميري، ومن الحيرة لُقِّنَه أهل الطائف وقريش[11].

2– وتوصلت الدراسات والاكتشافات الحديثة لتنفي كل صلة بين الخط العربي الشمالي الذي كتب به القرآن الكريم وبين المسند الذي كان أهل اليمن يكتبون به قبل الإسلام، ولعل ما بينهما من صلة لا يتعدى أنهما اشتقا من أصل سامي واحد قديم، وأشكال حروف الخط المسند تختلف اختلافاً أساسياً عن أشكال حروف الخط العربي"[12].

3– وما دام الأمر على هذه الشاكلة من خطأ تفسير القدماء لتسمية الخط العربي بالجزم، كان من الأجدر بمكان البحث عن تفسير يقترب من وضع الظاهرة في مسارها اللائق بها، و بناءً عليه يجب البحث عن إيجاد مخرج يقف على دعامات أصل هذا الخط لعله يتحقق الابتكار.

تدور هذه الرواية مصطحبة ذكر أسماء ثلاث رجال تداولهم الرواة وإليهم نُسِبَ وضع الخط العربي، ورد عن ابن القطامي (ت نحو155هـ)قوله:" اجتمع ثلاثة نفر من طيء ببقة وهم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة، فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار"[13].

جاء في الفهرست لابن النديم: "وقال بن عباس: أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان – وهي قبيلة – سكنوا الأنبار وأنهم اجتمعوا فوضعوا حروفا مقطعة وموصولة وهم مرار بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة ويقال مروة وجدلة فأما مرامر فوضع الصور وأما أسلم ففصل ووصل وأما عامر فوضع الإعجام، وسئل أهل الحيرة ممن أخذتم الكتاب العربي فقالوا من أهل الأنبار"[14].

يفيد هذا النص البحث في معرفة البدايات الأولى في الخط فقد كان موصولاً ثم فُصل بعضه عن بعض، يضاف إلى ذلك وقوفهم على الإعجام سواء أريد به الشكل والضبط أو النقط لتمييز الحروف المتشابهة رسماً.

ولم تلق هذه الرواية من بعض الباحثين المحدثين الترحيب والتصديق التامين لاستنادها على أثر الصنعة والاختراع في أسماء روادها فقد جاءت موزونة مقفاة: مرة، سدرة، جدرة، ولم تخضع لصدفة أو اتفاق حصل في أسماء أصحابها بل – وهو زعم أصحاب هذه الرواية– وُضِعت وضعاً،" ومع ما في هذه الأسماء من أثر للصنعة لما فيها من تتابع مقطعي مسجوع، ومع احتمال كونها مخترعة، إلاَّ أنه لابد أنها كانت تشير إلى وجود أشخاص، سواء كانت أسماؤهم هي هذه، أم قريباً منها، كان لهم دور ما في تطور الكتابة العربية"[15]لأنه لو رُدَّ كلُّ ما قيل في هذا الباب لأصبح الخبر تخمينيا وأسطورة من أساطير الأولين.

ما يلاحظ على هذه الرواية الأولى إفادة الرجال الثلاثة من الكتابة السريانية بعد وضعهم الخط العربي، وقد قاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية: "وقد ذهب بعض الباحثين المحدثين استناداً إلى هذا القول – على ما يبدو– الذي لا يدل على الأخذ بل الاستفادة فحسب وإلى ما يرويه ابن النديم من أن السريان كان لهم خط يسمى:(أسطر نجالا) ونظيره قلم المصاحف".[16]

وذهب فريق من الباحثين إلى حد التأثر والإفادة من غير نقل أو اقتباس، غير أنه– كما يقرر غانم قدوري[17]– لا تعتبر الكتابة السريانية إحدى مراحل الخط العربي، إذ لكل منها تاريخ تطوره المستقل عن الخط الآرامي.

وإذا ما انتقلنا إلى الرواية الثانية، بالرغم من اتفاقها مع الأولى في أسماء أولئك الثلاثة، فإنها اختلفت عنها في عدم إشارتها إلى الإفادة من هجاء السريانية، وهي تقدم توضيحات لما قام به أولئك فتقف على جهد "عامر" في وضعه الإعجام.

ويتساءل البحث هنا عن الدور الذي قام به أولئك الأعلام، وهل أسندت إليهم الكتابة العربية وضعاً أم أسهموا من قريب أو بعيد في تطور الكتابة؟.

يقدم صاحب رسم المصحف إجابة عن هذا التساؤل فيرى أن كونهم وضعوا الكتابة "أمر ينفيه ما تم كشفه من نقوش عربية تعود إلى وقت سابق على الوقت الذي يُقدَّرُ أنهم عاشوا فيه –و هو نهاية القرن الخامس أو بداية القرن السادس الميلادي– في أماكن بعيدة عن الأنبار والعراق"[18]و لا يهمل وضع الخطوط واختراعها في كونه يَعْسُرُ انتسابه إلى أفراد معينين. وقد يُعْزى إليهم أنهم عدلوا عن تلك الحروف التي كانت متداولةً في زمنهم وهي من أصل نبطي بغية ملاءمتها في شكلها مع السريانية.

وربما وجدت إشارة إلى طبيعة ذلك التعديل بالاحتكام إلى مسمّى (الجزم) الذي عرفت به الكتابة العربية قبل ظهور الإسلام، وكان من معاني الجزم أنه "ضرب من الكتابة، وهو تسوية الحرف، وقلم جزم لا حرف له"[19].

ويؤكد غانم قدوري على ما يراد بالجزم وعلى ما قام به الرجال الثلاثة من تسوية الحروف وتنسيقها لتصبح أكثر تنظيماً واستجابة لسرعة الكاتب؛ فلم يكن إطلاق مصطلح (الجزم) على أنهم اقتطعوا الخط وأخذوه من المسند بل لكونهم عدّلوا في حروفه فطاوعتهم وصارت أكثر استواءً وانسجاماً.

تركز الروايات العربية على الدور الذي قام به عرب العراق قبل الإسلام من أجل تطوير الخط العربي ونقله إلى الحجاز، وقد شهدت الحواضر العربية في غربي العراق تداول الخط العربي، وهو في طريقه إلى الحجاز وقلب الجزيرة العربية، حيث تجعل الراويات العربية– كما يستفاد من مؤلف رسم المصحف[20]– طريقها إليها عبر الحيرة ودومة الجندل نازلاً إلى مكة والطائف.

وسيُخصّصُ حيز لمكان نشوء الخط العربي، وكيف دخل إلى الحجاز وما هي الفترة التاريخية التي حدث فيها ذلك، بالنظر إلى تقدمه الدراسات الحديثة من إضافات قيّمة في تصور الخط العربي أصلاً ونشأةً.

رأي المحدثين في أصل الكتابة العربية:

قبل التعرف على رأي المحدثين في هذه المسألة جدير بالذكر أن يُستحضر –وإن في عجالة– ما سطرته المصادر القديمة عن أصل الكتابة العربية، وهي تبدو في أكثرها غير واضحة بداعي اختلاطها بعناصر قصصية لم تدعم بحقائق علمية ثابتة، إلا أن المحدثين سلكوا طريقاً في البحث بالرغم من أنهم رأوا تقريباً ما ذهبت إليه المصادر العربية وقتاً ليس بالقصير، لكنهم – أي المحدثين– وبفضل

اكتشافهم بعض النقوش الجاهلية التي وجدوها مكتوبة بأحد فروع الخط النبطي المتأخر الضارب في الشبه بالخطوط العربية القديمة وفي لغة قريبة من اللغة العربية، كما استخلص ذلك غانم قدوري[21]، لذلك كله اختلفت وجهة نظرهم.

لا ريب في أن معرفة تاريخ الخطوط السامية وتطورها دفعة قوية بالبحث ليقف على علاقة الخط العربي بالخطوط السامية الأخرى. ويُكتفى بالإشارة هنا إلى "الخط الفينيقي المشتق من كتابات شبه جزيرة سيناء التي يرجع تاريخها إلى (سنة1850قبل الميلاد) والتي تعتبر أقدم كتابة أبجدية قد استخدمت لتدوين اللغة الآرامية في القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد، وأن الخط الآرامي قد تطور إلى عدة فروع في بلاد الشام وما اتصل بها لعل من أهمها: النبطي والتدمري والسرياني والعبراني المربع"[22].

ساعدت الاكتشافات الأثرية في جزيرة العرب على التفريق بين نوعين من الخطوط ظل العرب قبل مجيء الإسلام يستعملونها؛ أولهما الخط العربي الذي كُتِب به القرآن الكريم، وهو الشمالي، وثانيهما المسمى بالمسند، وقد انتشر في جنوب الجزيرة العربية.

ويمكن إجمال ما يثري هذه النقطة في الآتي ذكره:

1- كثرت تلك النقوش المدونة بالمسند في بلاد اليمن وأرض الجزيرة وامتدت إلى حدود بلاد العرب مروراً بمصر ووصولاً إلى جزر اليونان وأطراف العراق.

2- مما سبق يستخلص أن المسند عرف وشاع قبل الإسلام في شبه جزيرة العرب وقد يعتبر القلم العام للعرب قبل المسيح لكونه أقدم الأقلام آنذاك.

3- وبقي استعمال المسند حتى القرن الخامس أو السادس الميلاديين أي أن ذلك الخط تلاشى استعماله قبل مجيء الإسلام.

4- ولم يُتَّفَقْ على أقدم الكتابات المدونة بالمسند؛ فمن مُرجعِه إلى سنة (1500 أو 1300 ق م) في مقابل من ذهب إلى تسجيل أقدم كتابة عثر عليها بالمسند إلى أكثر من (800 أو 700 ق م)[23]، ولتحديد هذا التاريخ قيمة كبيرة من حيث البحث عن أصل ظهوره ومنشئه.

ولابد هنا من وقفة تعريفية بهذا الخط؛ فحروفه بلغت تسعة وعشرين حرفاً، وأبجديته كالسامية الأخرى، تتألف من الحروف الصامتة لا تظهر الحركات في كتابتها ولا تضبط أواخر كلماتها ولا علامة لمسكَّنٍ أو مشدَّدٍ، وربما كتب الحرف المشدد مرتين، ولا اتصال بين حروف الكلمة الواحدة، ويَفْصل بين الكلمة وأختها فاصل على شكل خط عمودي مستقيم، وتقرأ الكلمة من اليمين إلى اليسار أو بضده.

5- وقد أدى انتشار واستخدام المسند، وما عُثِر عليه مكتوباً بتلك الأقلام بالنقوش اللحيانيةوالثمودية والصفوية –وإن زالت من الاستعمال قبل الإسلام– أدى ذلك كله إلى الاعتقاد بأن الخط العربي متطور عن هذا الخط، وبمقارنة كلا الخطين وما يخص كلا منهما يُبعد ذلك الاعتقاد.

6- وربما بدا غريباً أن الكتابة العربية الشمالية ليست متطورة عن المسند، بعدما عُرف من علاقات بين جنوب الجزيرة وشمالها وبعد ذيوع المسند واستعماله في شمال الجزيرة قروناً كثيرةً قبل الميلاد وبعده إلى ما قبيل مجيء الإسلام، غير أن ما أصاب اليمن من تدهور قبل الإسلام، وما امتاز به المسند من خفاف ودقة شكل وصعوبة رسم يومئ إلى ما لحق هذا الخط من إهمال وانحسار أمام غيره من الخطوط المنحدرة من الآرامي الواصل من أطراف الجزيرة الشمالية، وقد امتاز هذا الخط بالمرونة والسهولة، ولعله كان سبباً من أسباب انتشار بعض فروع الخط الآرامي في بلاد العرب كما ذهب جواد علي[24].

و بعد، فخاتمة هذه المداخلة اقتضت أن ندلل على وجود الكتابة في الجاهلية استناداً إلى ما جاء في أكثر من آية نصت على أن القوم عرفوا الكتابة، و إلا ما نعتوا بالقراءة، أو حاولوا الجدل لينزل عليهم كتاب يقرأونه، قال تعالى: "أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا"[الإسراء:93]، و قال عزوجل: "وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا".

الهوامش:

1. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للعلامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، شرح وضبط وتصحيح محمد أحمد جاد المولى بك، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، منشورات الكتبة العصرية، 1408هـ 1987م، ج2/ 343.
2. ينظر الخط العربي و تاريخه، محمد مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994م، ص: 34.
3. ينظر: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، المكتبة السلفية – القاهرة، 1328هـ/1910م، ص: 7.
4. الصاحبي في فقه اللغة، ص: 7 وينظر صبح الأعشى ج3ص: 11.
5. صبح الأعشى، الشيخ أبي العباس القلقشندي، دار الكتب الخديوية، طبع بالمطبعة الأميرية بالقاهرة، 1332هـ-/1914م، ج13/3.
6. ينظر: السيرة النبوية،لابن هشام، ج3/1.
7. ينظر: رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية لغانم قدوري الحمد، اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر، ط/1، 1402هـ/1982م ص: 29.
8. المرجع نفسه ص: 29.
9. ينظر: جمهرة اللغة، لابن دريد، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الأولى، 1987م، ج472/1.
10. ينظر سر صناعة الإعراب، لابن جني، تحقيق مصطفى السقا وجماعة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الأولى، 1954م، ج45/1.
11. ينظر: المقدمة، تاريخ العلامة ابن خلدون، (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، الدار التونسية للنشر، 1984م، ج1/ 755-756.
12. رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية، ص: 33.32.
13. رسم المصحف، دراسة لغويةوتاريخية، ص: 33.
14. الفهرست، محمد بن إسحاق، تحقيق: مصطفى الشويمي، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1406هـ/1985م، ص: 59-60.
15. رسم المصحف..ص: 34.
16. رسم المصحف ص: 34.
17. ينظر المرجع نفسه ص: 35.
18. المصدر نفسه ص: 35.